﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ٢١﴾

[الجاثية: 21]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تباينُ حالِ المسيئين والمحسنين في المحيا والممات

لمّا كان التَّقدير بعد هذا البيان الذي لم يدع لبسًا في أمر الحساب أن يحاسب الملك عبيده لثواب المحسن وعقاب المسيء؛ أُعلِم هؤلاءِ المخاطَبون بأنّا نفرِّقُ بين المسيئين الذين بعضهم أولياء بعض وبين المحسنين الذين نحن أولياؤهم، فقال تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[1].

وأيضًا لمّا بيَّن الفرق بين الظّالمين والمتَّقين؛ بيَّن الفرق بين تباين حاليهما في الحياة وفي الممات، فقال تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الآيةَ[2].

وأيضًا لمّا ذكر أنَّ هذا القرآن بصائر، وأنَّه هدًى ورحمة لقوم يوقنون؛ ناسب أن يبيِّن الفرق بين الفريق الذي ينتفع بالبصائر، ويكون القرآن له هدًى ورحمة، والَّذين يكون الله وليَّهم، وبين الفريق الذي لا ينتفع بها، والذين بعضهم أولياء بعضٍ، فبيَّن أنَّ الفريقين لا يستويان في محياهم ومماتِهم في الثَّواب والعقاب، فقال تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الآيةَ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَسِبَ﴾: أصلُ (حسب) يدلُّ على العَدِّ، تَقولُ: حَسَبْتُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 89 - 90.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 675، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 72.

الشَّيءَ أحسُبُهُ حَسبًا وحُسْبانًا، ومن قياس الباب الحِسْبانُ الظَّنُّ، حَسِبَ يَحسِبُ ويَحسَبُ حِسْبانًا[1]، وذلك أنَّه فرَّق بيْنَه وبين العَدِّ بتغيير الحركة والتَّصريف، والمعنى واحدٌ؛ لأنَّه إذا قال: حَسِبْتُهُ كذا؛ فكأنَّه قال: هو في الَّذي أعُدُّه من الأمور الكائنة[2]، وحقيقة الحِسبان: أن يحكم لأحد النَّقيضين من غير أن يخطر الآخر بباله، فيحسبه، ويعقد عليه الإصبع، ويكون بعَرَضٍ أن يعتريه فيه شكٌّ، ويقارب ذلك الظَّنَّ، لكن الظَّنَّ أن يخطر النَّقيضين بباله، فيغلِّب أحدهما على الآخر[3]، وعليه فالمراد بالحِسبان في الآية: الظَّنُّ، أي: ترجيح أحد النَّقيضين على الآخر.

2) ﴿ٱجۡتَرَحُواْ﴾: أصلُ (جرح) يدلُّ على الكَسْبِ، ومنه قولُهم: اجتَرَحَ؛ إذا عمِل، وكسب، وإنَّما سُمِّيَ ذلك اجتراحًا؛ لأنَّه عَمَلٌ بالجوارح[4]، وجوارِحُ الإنسان: أعضاؤه الَّتي يَكتَسِبُ بها[5]، وفلان جارحُ أهلِه وجارِحَتُهم، أي: كاسِبُهم، والجَوارِحُ مِنَ الطَّيرِ والسِّباعِ والكِلابِ: ذواتُ الصَّيْدِ؛ لأنَّها تَجْرَحُ لأهلها، أي: تَكْسِبُ لَهُمُ، الواحدةُ جارحةٌ، قال الأزهريُّ: سمِّيت بذلك؛ لأنَّها كواسِبُ أنفسها من قولك: جرَح، واجترَح[6]، والاجتراح: اكتساب الإثم[7]، والمقصود بالاجتراحِ في الآية: الاكتسابُ، وصيغة الافتعال فيه للمُبالغةِ، ومعناه: اكتسبوا الكفر والمعاصي.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يقولُ الحقُّ تبارك تعالى مفرِّقًا بينَ حالِ الَّذين يَكتَسِبونَ

تَـبـايُـنُ حـالِ المـؤمِـنِ العـاصي مِن حالِ الطّائِعِ

(1) ابن عباد، المحيط في اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (حسب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حسب).
(3) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (حسب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جرح).
(5) الجوهري، الصحاح: (جرح).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (جرح).
(7) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (جرح).

السَّيِّئَاتِ، وحالِ المؤمنينَ الَّذين يَعمَلونَ الصّالحاتِ: أم ظَنَّ الَّذين عَمِلوا السَّيِّئاتِ في الدُّنيا، واكتَسَبوها أن نُساوِيَهم في حياتِهم ومَوتِهم بالَّذين آمَنوا، وعَمِلوا الأعمالَ الصّالحةَ؟ كلّا، فليس المُؤمِنونَ سَواءً مع الكفّارِ، لا في المحيا ولا في المماتِ، بِئسَ هذا الحُكمُ الَّذي حَسِبَه المُشرِكونَ؛ أنَّ اللهَ يُساوِي بيْنَ الَّذين عَمِلوا السَّيِّئاتِ والَّذين آمَنوا، وعَمِلوا الصّالحاتِ في مَحياهم ومماتِهم[1].

قال إبراهيمُ بنُ الأشعَثِ: (كثيرًا ما رأيتُ الفُضَيلَ بنَ عِياضٍ يُرَدِّدُ مِن أوَّلِ اللَّيلِ إلى آخِرِه هذه الآيةَ ونَظيرَها، ثمَّ يقولُ: لَيتَ شِعري مِن أيِّ الفريقَينِ أنتَ؟)، وكانت هذه الآيةُ تُسمَّى مَبكاةَ العابِدينَ[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

مناسبة الفصل في الآية:

جاءت جملة: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ على طريق الفصل؛ لأنَّها استئنافيَّة؛ لقصد الانتقال مِن وصْفِ تكذيب الكافرين بالآيات والاستهزاء بها، ثمَّ من أمر المؤمنين بالصَّفحِ عنهم وإيكال جزاء صنائعهم إلى الله تعالى، ثمَّ من الأمر بملازمةِ الشَّريعة إلى وصف صنف آخر من ضلالِهم واستهزائهم بالبعث والحياة بعد الموت والجزاء على الأعمال، وإيهامهم النّاس أنَّهم يصيرون في الآخرة على الحالِ التي يكونون عليها في الدُّنيا، عظيمهم في الدُّنيا عظيمهم في الآخِرَةِ، وضَعيفُهُم في الدُّنيا ضعيفُهم في الآخِرَةِ، فكَأنَّه يقول: من أبصر فلنفسه، ومن عمي فعليها[3].

إيهام الكافرين متَّبعيهم أنَّ عظيمهم في الدُّنيا عظيمهم في الآخرة وضعيفهم في الدُّنيا ضعيفهم في الآخرة

نوعُ ﴿أَمۡ﴾ وبلاغة استعمالها:

﴿أَمۡ﴾ في قوله: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ منقطعة،

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 267، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 777.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 166.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 351.

وليست متَّصلة[1]، فهي بمعنى (بل)؛ لتفيد الإضراب الانتقالي من البيان الأوَّل إلى البيان الثّاني المفيد عدم تساوي حال الكافر العاصي مع حال المؤمن الطائع، فالمقصود من التَّعبير بـ﴿أَمْ﴾ بيان التَّغاير بين المحسنين والمسيئين وعدم تساوي حاليهما؛ لتفيد الأداةُ التَّنبيه إلى خطأِ من يظنُّ تساوي الفريقين، وتماثل حاليهما، وإلى أنَّ الصَّحيح هو تغاير الفريقين في محياهم ومماتهم، وذهب بعض المفسِّرين إلى أنَّ ﴿أَمْ﴾ للعطف على همزة الاستفهام المقدَّرة، وتقديرُه هاهنا: واللّه وليُّ المتَّقين، أعلِمَ المشركون هذا، أم حسبوا أنّا نتولّاهم، كما نتولَّى المتقين، فنُسَوِّي بين الفريقين في المَحيا والممات، ونُؤتي المُسيءَ في الآخرة مِن نعيمها، كما نُؤتيه في الدُّنيا مِن نعيمها؟[2].

التَّنبيه إلى خطأِ من يظنُّ تساوي المسيئين والمحسنين في حياتِهم ومماتِهم

تقدير الاستفهام بعد ﴿أَمْ﴾ وفائدته:

﴿أَمْ﴾ المنقطعة فيها معنى الاستفهام، وتقدير الكلام: بل أحسب الذين اجترحوا السَّيِّئات[3]، وقد أجمع المفسِّرون على أنَّ المراد من الاستفهام هو الإنكار[4]، بمعنى إنكار حسبانِهم الذي هو في قلوبِهم وعقولِهم المفيد إنكار المحسوب، أي: إنكار الواقع ونفيه، أي: إنكار أن يستوي الكافر العاصي مع المؤمن الطّائع، والمعنى: لا ينبغي هذا الحسبان لوجود ما ينافيه ولظهور عدم التَّساوي لكلِّ أحدٍ، ويتولَّد من هذا الإنكار استقباح حسبانِهم وتقبيحه[5].

إنكار أن يستوي الكافر العاصي مع المؤمن الطّائع

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 290.

(2) أبو حفص النّسفي، التيسير في التفسير: 13/ 358، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 676، وابن عادل، اللباب: 17/ 361.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 85، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 419.

(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 290، والبيضاوي: 5/ 107، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 419.

(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 72، والشهاب الخفاجي، حاشية على تفسير البيضاوي: 8/ 18، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 428.

نكتةُ اختيار لفظ ﴿حَسِبَ﴾:

التَّعبير بلفظ الظَّنِّ يدلُّ على ضعفِ علم العالم والتَّعبير بلفظ الحُسبان يدلُّ على ضعف عقل العاقل

عبَّر بلفظ ﴿حَسِبَ﴾ دون أن يقال: أم ظنَّ الذين اجترحوا، ونحوه من الألفاظ المتواردة على هذا المعنى؛ لأنَّ ﴿حَسِبَ﴾ مأخوذ من الحساب، فكأنَّ الذي يحسب قد أجرى عمليَّة الحساب عنده بعد مراقبة الحالِ في ما اعتاده، فأدّاه حسابه إلى ذلك الشَّيء، فالحساب هو ممّا تقع غلبته في العقل ممّا يكون في العادة، فيدلُّ اللَّفظ على ضعف العقل في تقدير ما جرت به العادة؛ ليدلَّ التَّعبير بلفظ ﴿حَسِبَ﴾ على ضعف عقولِهم، وأنَّ حسبانهم بُني على غير حكمةٍ في تقديرِهم، ولا يدلُّ لفظ الظَّنِّ سوى على عدم اليقين في المعلوم؛ بسبب عدم القطع في الدَّليل، فالتَّعبير بلفظ الظَّنِّ يدلُّ على ضعفِ علم العالم، والتَّعبير بلفظ الحُسبان يدلُّ على ضعف عقل العاقل[1].

غرضُ التَّعبير بصيغة الماضي ﴿حَسِبَ﴾:

عبَّر بصيغة الماضي في قوله: ﴿حَسِبَ﴾؛ للإيذان بأنَّ حسبانَهم قد وقع، وحصلَ؛ ليفيد الكلامُ أنَّ الإنكار على الواقع، وليس على الوقوع.

بلاغةُ الإيماء في الآية:

إنكار الحُسبان يفيد بدلالة الإيماء إنكار الاعتقاد

لمّا كان قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ مفيدًا أنَّ الإنكارَ واردٌ على حسبان الذين اجترحوا السَّيّئات في تسوية حالِهم حياةً ومماتًا بحال المؤمنين الصّالحين؛ أفادَ أنَّ الإنكار يكون أشدَّ إن اعتقدوا هذا الاعتقاد الباطل المنكر، فيكون الإنكار على الاعتقاد من باب الأولى، وتقبيحه أشدُّ، وذمُّه أبلغ.

مناسبة التَّعبير بالاسم الموصول وصلته:

عبَّر بالاسم الموصول وصلته في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، وقوله: ﴿كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ للإيماء إلى علَّة إنكار

(1) البقاعي، نظم الدرر: 3/ 205.

المشابهة والمساواة، أي: لأنَّ هؤلاء اجترحوا السَّيِّئات، وهؤلاء آمنوا، وعملوا الصّالحات، كما يفيد التَّعبير بالموصول وصلته في الموضعين التَّسجيل على كلِّ فريق بما يقدِّمه، وفيه كذلك ذمُّ المجترحين وإهانتهم ومدح المؤمنين الطّائعين وتعظيم إيمانِهم وعملِهم.

المجترح للسَّيِّئات مذموم والذي يعمل الصّالحات ممدوح

بلاغة الاستعارة في الفعل: ﴿ٱجۡتَرَحُواْ﴾:

جاء الفعل ﴿ٱجۡتَرَحُواْ﴾ على طريق الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، فشُبِّه عملُهم السَّيِّئات واكتسابُهم لها باكتساب الطّائر الجارح لطريدته، ولِذَلِكَ سُمِّيَتْ كِلابُ الصَّيْدِ جَوارِحَ، وسُمِّي بِهِ اكتِسابُ النّاسِ؛ لأنَّ غالِبَ كَسبِهِم في الجاهِلِيَّةِ كانَ مِنَ الإغارَةِ عَلى إبِلِ القَومِ، وهِيَ بِالرِّماحِ؛ إذ استُعير الاجتراح مع ما يوحي به من العدوان والأذى والضُّرِّ لاكتساب الإثم والخبيث، وفي هذه الاستعارة إشارةٌ إلى أنَّ اجتراحَ السَّيِّئات لا يكون إلّا بجرح فضيلة من الفضائل، وبعدوان على حقٍّ من الحقوق[1]، كما أفاد اللَّفظ أنَّ من يجترح السَّيِّئات يُقتصُّ منه، كما قال تعالى: ﴿وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ﴾ [المائدة: 45].

اجتراحُ السَّيِّئات لا يكون إلّا بجرح فضيلة من الفضائل، وبعدوان على حقٍّ من الحقوق

نكتةُ التَّعبير بالماضي ﴿ٱجۡتَرَحُواْ﴾:

عبَّر بصيغة الماضي في الفعل ﴿ٱجۡتَرَحُواْ﴾؛ للإشعار بتقبيح اجتراحِهم الَّذي وقع، ولتقرير أنَّ الإنكار على الواقع الحاصل.

بلاغةُ الكناية في لفظ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾:

عبَّر بلفظ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ كناية عن كفرِهم؛ لأنَّ اجتراحَ السَّيِّئات مِن شعارِ أهلِ الشِّركِ؛ إذ لَيسَ لَهم دينٌ وازِعٌ يَزَعُهُم عَنِ السَّيِّئاتِ، ولا هُم مُؤمِنونَ بِالبَعثِ والجَزاءِ، فَيكونُ إيمانُهُم بِهِ مُرَغِّبًا في الجَزاءِ، ولِذَلِكَ كَثُرَ في القُرآنِ الكِنايةُ عَنِ المُشركينَ بِالتَّلَبُّسِ بِالسَّيِّئاتِ كَقَولِهِ: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ١﴾ [المطففين: 1]، إلى قَوله: ﴿أَلَا

اجتراحُ السَّيِّئاتِ مِن شعارِ أهلِ الشِّركِ؛ إذ لَيسَ لَهم دينٌ وازِعٌ يَزَعُهُم عَنِ السَّيِّئاتِ

(1) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 242.

يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۝٤ لِيَوۡمٖ عَظِيمٖ ۝٥﴾ [المطففين: 4-5]، ونظيرُهُ: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ۝٤﴾ [العنكبوت: 4]، فَإنَّ ذَلِكَ حالُ الكُفّارِ، وأمّا المُؤمِنُ العاصي؛ فَلا تَبلُغُ بِهِ حالُهُ أن يَحسَبَ أنَّهُ مُفلِتٌ مِن قُدرَةِ اللّه[1].

نكتة التَّعبير بلفظ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾:

عبَّر بلفظ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؛ للإشعار بأنَّ الأفعالَ القبيحة تسوء صاحبها، وتسوء من تنزل به، وأكَّد هذا المعنى بتعلُّق الكلمة بلفظ ﴿ٱجۡتَرَحُواْ﴾.

الأفعالُ القبيحة تسوء صاحبها وتسوء من تنزل به

فائدةُ سدِّ المصدر المؤوَّل مسدَّ مفعولي ﴿حَسِبَ﴾:

جاء مفعولا الفعل ﴿حَسِبَ﴾ بصيغة المصدر المؤوَّل الَّذي يسدُّ مسدَّ المفعولين، في قوله: ﴿أَن نَّجۡعَلَهُمۡ﴾، وفائدته: بيان أنَّ مصبَّ الإنكار عليهم في أن يكونوا كذلك في الآخرة؛ بسببِ دلالة ﴿أَن﴾ المصدريَّة على الزَّمن المستقبل، كما يدلُّ تعلُّق الفعل بالمصدر المؤوَّل على أنَّ هذا الجعل هو في إمكان اللّه تعالى، ولكنَّه لن يجعلهم كالذين آمنوا بسبب اجتراحِهم السَّيِّئات، كما أنَّ في مجيء المصدر المؤوَّل إشارةً إلى أنَّ الفعل متعلِّق بمجرَّد معنى الحدث دون احتمال معنى زائد عليه، ففي المصدر المؤوَّل تحصين للمعنى من الإشكال وتخليص له من شوائب الإجمال.

براعةُ المدح في استعمال مفردة الجعل في قوله: ﴿نَّجۡعَلَهُمۡ﴾:

في قوله تعالى: ﴿أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ تعريضٌ بلفظ ﴿نَّجۡعَلَهُمۡ﴾ إلى أنَّه تعالى هو الذي وفَّق المؤمنين للإيمان والعمل الصّالح، وأنَّهم صاروا كذلك بجعلِه وتوفيقِه، وأنَّ هذا الجعل ثابتٌ لا يتغيَّر، ولمّا جاء الفعل مسندًا إلى نون العظمة؛ أفادَ أنَّه جعلٌ عظيم لا يقدر عليه إلّا اللّه الواحد الأحد.

اللّه تعالى هو الذي وفَّق المؤمنين للإيمان والعمل الصّالح، وهم صاروا كذلك بجعلِه وتوفيقِه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 352.

دلالة الكاف وأثرها التَّشبيهي:

ما ذكـره الله تعالى ممّا يكونُ عليه المؤمنون عند الله يوم القيامة صار مضربَ مثلٍ لحسن الحالِ

لمّا كان قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مفيدًا أنَّ الإنكارَ المسلَّط على حُسبان الكفّار دالٌّ على أنَّهم حسبوا أنَّهم يكونون بعد الممات أفضل حالًا من المؤمنين، لا أن يَكونوا مِثْلَ المُؤمِنينَ؛ لأنَّهُم قالوا ذَلِكَ في مَقامِ التَّطاوُلِ عَلى المُؤمِنينَ، وإرادَةِ إفحامِهِم بِسَفسَطَتِهِم، وهذا الأمر يقتضي أنَّهم مؤمنون بالبعثِ، والواقع يخالفه، فلمّا كان الأمرُ كذلك؛ دلَّ على أنَّ التَّشبيه بالكاف في الآية يقصد به أن يكون مضربَ المثل، وليس الإنكار على حسبانِهم أن يكونوا مثل المؤمنين في الجنَّة، فالمرادُ من التَّشبيه الإيماءُ إلى أنَّ الله تعالى قدَّر حسنَ الحالِ للمؤمنين يوم القيامةِ، وتوارد هذا في كتبِه حتَّى صارَ ذلك المقدَّر مضربَ مثلٍ ومناط تشبيهٍ لحسنِ الحالِ، وإلى أنَّ حُسبان المشركين أنفسَهم في الآخرة على حالٍ حسنةٍ باطلٌ، فَعبَّر عَن حُسْبانِهِمُ الباطِلِ بِأنَّهُم أثبَتوا لأنفُسِهِم في الآخِرَةِ الحالَ الَّتي هِيَ حالُ المُؤمِنينَ، أي: حسبَ المشركون بزعمِهم أن يكونوا بعدَ الموت في حالٍ إذا أراد واصفٌ أن يصفَها يقول: هي تشبهُ حالَ المؤمنين عند الله، فليس المرادُ أنَّ المشركين مثَّلوا حالَهم بحال المؤمنين، فَيُؤَوَّلُ قَوْلُهُ: ﴿كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إلى حِكايَةِ الكَلامِ المَحكِيِّ بِعِبارَةٍ تُساويهِ لا بِعِبارَةِ قائِلِه، فيكون ذِكر ﴿كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بيان مقصد التَّشبيه ومآله، فَكَأنَّهُ قِيلَ: أحَسِبوا أن نَجعَلَهُم في حالَةٍ حَسَنَةٍ، ولكِنَّ هَذا المَأمولَ في حُسبانِهِم هوَ في نَفسِ الأمرِ حالُ المُؤمِنينَ لا حالُهُم، فيكون حسبانُهم منكَرًا عليهم، وهو باطلٌ[1].

بديع التَّقابل:

جاءت المقابلة بين الفريقين في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 354.

شـــدَّة قُـبـح الاجـتراح بحيث قابله بالإيمان والعمل الصّالح مجتمعين

وقوله: ﴿كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، ولم تأتِ المقابلة على ما هو مقتضى الظّاهر بأن يقابل الإيمان بالكفر، كما قابل العمل الصّالح باجتراح السَّيِّئات، والنُّكتة فيه أنَّ اجتراحَ السَّيِّئات مختصٌّ بالكفّار، كما تقدَّم في بلاغة الكناية، فكأنَّه قيل: أم حسبَ الذين كفروا، واجترحوا السَّيِّئات[1]، وفيه إشارةٌ إلى شدَّة قبح الاجتراح، وأنَّه يكفي في مقابلته بالإيمان والعمل الصّالح، أو يقال: حُذف من الأوَّل بما ذكره في الثّاني، ودلَّ عليه، وكأنَّ تقدير الكلام الذين كفروا، واجترحوا السَّيِّئات، ونكتة الحذف الإشعار بأنَّ اجتراح السَّيِّئات لا يكون إلّا من الكفّار، وهذه الآية وإن كانَ مَوردُها في تَخالُفِ حالَيِ المُشركينَ والمُؤمنينَ؛ فَإنَّ نَوطَ الحُكمِ فِيها بِصِلَةِ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ ودون أن يقال: (الذين كفروا، واجترحوا السَّيِّئات)، يومئُ إلى تَفاوُتِ حالَيِ المُسيئينَ والمُحسِنينَ مِن أهلِ الإيمانِ وتباين حالِ المؤمن العاصي من الطّائع[2].

توجيه القراءات القرآنيّة:

تنـوُّع الـقـراءات إثـــراءٌ للمعنى وتوسيع له

قرأ حمزةُ والكسائيُّ وخلف وحفص ﴿سَوَآءً﴾ بالنَّصب، وقرأ الباقون ﴿سَوَآءٌ﴾ بالرَّفع، وتوجيه القراءتين هو أنَّه على قراءة النَّصب يكون ﴿سَوَآءً﴾ بدلًا من المفعول الثاني في ﴿نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ﴾، أي: يكون اللَّفظ بدلًا من كاف التَّشبيه الَّتي بمعنى مثل[3]، وهو بدل مفردٍ من مفردٍ، وهو من قبيل بدلِ الكلِّ من الكلِّ، والمعنى: إنكار أن نجعلهم مماثلين للَّذين آمنوا حالَ كونِ حياتِهم ومماتِهم سيَّينِ في البهجة والكرامة، وذكر المعربون أوجهًا أخرى في توجيه نصبِ ﴿سَوَآءً﴾، وما ذكرناه أولى، وهو أظهر الأوجه[4] وعلى قراءة الرَّفع

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 428.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 421، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 354.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 290، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 107.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 148.

يكون ﴿سَوَآءٌ﴾ خبرًا والمبتدأ ﴿مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ﴾، وتكون الجملة بدلَ الكلِّ من المفعول الثّاني لـ﴿نَّجۡعَلَهُمۡ﴾، وهو الكاف الَّتي بمعنى مثل، وعلى هذا الوجه تكون قراءة الرَّفع موافقةً لقراءة النَّصب في المعنى، وغاية الأمر أنَّ قراءة النَّصب تكون بدلَ مفردٍ من مفرد، وقراءة الرَّفع تكون بدلَ جملةٍ من مفرد، وهو بمنزلة عطف البيان؛ لزيادةِ إيضاح المعنى وبيانِه، والمعنى على وجهي البدل هو إنكار أن يستويَ المجترحون محياهم ومماتهم مع الصّالحين محياهم ومماتهم؛ لافتراق أحوالِهم أحياء؛ إذ عاش الصالحون على القيام بالطاعات، وأولئك على اقتراف السيئات ومماتًا؛ إذ مات هؤلاء على البشرى بالرَّحمة والكرامة، وأولئك على اليأس من الرَّحمة والنَّدامة، ويحتمل أن يكونَ المعنى إنكارَ الاستواء في الممات، كما استووا في حياتِهم ظاهرًا في الحياة، أي: إنكار أن يستووا في الممات بالجزاء، كما استووا في الحياة في الرِّزق والصِّحَّة[1]، ويحتمل على قراءة رفع ﴿سَوَآءٌ﴾ أن تكون الجملة الاسميَّة حالًا، والتَّقدير: أم حَسِبَ الكُفّارُ أن نُصَيِّرَهُم مِثلَ المُؤمِنِينَ في حالِ استِواءِ مَحياهُم ومَماتُهُم، أي: والحال أنَّهم لَيسوا كَذلِكَ، بَل هُم مُفتَرِقونَ، أي: افتِراقٌ في الحالتَين، وتَكونُ هَذِهِ الحالُ مُبَيِّنَةً ما انبَهَمَ في المِثليَّةِ الدّالِّ عَليها الكافُ، الَّتي هيَ في مَوضِعِ المَفعولِ الثّاني[2].

بديع الطِّباق:

المماثلة بين المحيا والممات

جاء الطِّباق في قوله: ﴿مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ﴾، وهو من طباق الإيجاب، وفائدته: هو أنَّ المماثلة الواقعة في حيِّز الإنكار إنَّما هي في مضمون: ﴿سَوَآءً مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ﴾، أي: في إنكار تسوية

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 290، والنسفي، مدارك التنزيل: 3/ 302، وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 429.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 420.

حالِهم حياةً ومماتًا كحالِ المؤمنين، فلا يتمُّ المعنى المقصود من دون لفظي الطِّباق.

دلالةُ مرجع الضَّمير في قوله: ﴿مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ﴾:

إنكار استواء المجترحين والصّالحين في المحيا والممات

احتَمَلَ الضَّميرُ في مَحياهُم ومَماتُهُم أن يَعودَ عَلى كلٍّ من المُجترِحينَ والصّالِحينَ على التَّوزيع في المعنى، وذِهْنُ السّامِعِ يُفَرِّقُهُ على الفريقين؛ ليكون المعنى إنكار استواء المجترحين والصّالحين في المحيا والممات[1]، وهذا هو الظّاهر، وأجاز بعض المفسِّرين أن يعود الضَّمير في ﴿مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ﴾ عَلى الَّذِينَ اجتَرَحوا، فيكون قد أخبر عن أنَّ حالَهم في وقت حياتهم وفي وقت مماتِهم سواء، أي: في عدم الهداية في الدُّنيا والإهانة والعقاب في الآخرة[2].

بديع الجناس بين ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ و﴿سَآءَ﴾:

اجتراحُ السَّيِّئات سببٌ في سوء الحكمِ

ورد الجناس الاشتقاقيُّ في لفظَي ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ و﴿سَآءَ﴾، وهو من الجناس النّاقص، وفائدته بيانُ توافق ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ التي هي متعلِّقة بالأعمال، ولفظ ﴿سَآءَ﴾ المتعلِّق بحكمِهم القلبي في الذَّمِّ والتَّوبيخ، كما أنَّ فيه إيماءً إلى أنَّ اجتراحَ السَّيِّئات سببٌ في سوء حكمِهم وتقبيحه.

دلالة تركيب ﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾:

حسبان المجترحين السَّيِّئات مذموم قبيحٌ وبلغ أقصى نهايات السّوء

إمّا أن يكون الفعل ﴿سَآءَ﴾ فعلًا تامًّا بمعنى قبح، وتكون ﴿مَا﴾ مصدريَّة، والمخصوص بالذَّمِّ محذوف تقديره (هذا)، أي: ساء حكمُهم هذا، بمعنى: ساء الحكم حكمهم، ويحتمل أن يكون الفعل ﴿سَآءَ﴾ من أفعال الذَّمِّ بمعنى: (بئسَ)، وتكون ﴿مَا﴾ نكرةً موصوفة بمعنى (شيئًا)، والجملة الفعليَّة ﴿يَحۡكُمُونَ﴾ صفة، والعائد إلى الموصوف محذوف، تقديره ما يحكمون به، وتقدير الكلام: بئسَ شيئًا حكموا به ذلك، والمراد على هذا الوجه إنشاء ذمِّهم، وسبب

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 419، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 355.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 419.

حذف العائد تعميمُ ذمِّ كلِّ شيءٍ يحكمون به، وعلى الوجهين المذكورين ففائدة مجيء هذا التَّركيب الدالِّ على الذَّمِّ أنَّه إذا أريد ذمُّ حكم؛ فإنَّ حكمَهم هو الأولى بالذَّمِّ والتَّقبيح، وأنَّه بلغَ أقصى نهايات السّوء، فهو ممّا يتعجَّبُ منه[1].

براعة العدول عن مفردة (يحسبون) إلى ﴿يَحْكُمُونَ﴾:

عدل عن أن يقال: (ساء ما يحسبون) مع أنَّ الإنكار على حسبانِهم إلى قوله تعالى: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾؛ للإشعار بأنَّ حسبانَهم صار حكمًا متوغِّلًا في أنفسِهم.

نكتةُ التَّعبير بصيغة المضارع:

عُبِّرَ بصيغة المضارع في قولِه: ﴿يَحْكُمُونَ﴾؛ للإشعار بإصرارِهم على تجديد حكمهم القبيح هذا في كلِّ وقتٍ، وأنَّ هذا الحكمَ السَّيِّئ القبيح يتجدَّد بتجدُّد موجبِه، ولا يختصُّ به زمانٌ دون زمان.

بلاغةُ جملة التَّذييل: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾:

جاءت جملة: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ تذييلًا لِما قبلَها من إنكار حسبانِهم، وما اتَّصل بذلك الإنكار من المعاني[2]، ولتفيد جملة التَّذييل بما تضمَّنته من معنى العموم تقبيحَ كلِّ حكمٍ يحكمونه مترتِّبًا على حسبانِهم المذموم، وأنَّ هذا الحكم ممّا لا يرضاه أحدٌ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 91.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 355.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والخمسون،
سورة الجاثِية من الآية 16 إلى سورة محمَّد الآية 06
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والخمسون، سورة الجاثِية من الآية 16 إلى سورة محمَّد الآية 06
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 55 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-659-89-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 55 : المجلد الخامس والخمسون، سورة الجاثِية من الآية 16 إلى سورة محمَّد الآية 06.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-659-89-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4299298 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"